

مقدمة

تمتد جهة بني ملال-خنيفرة على مساحة شاسعة تجمع بين السهول والهضاب والجبال مع طغيان واضح للأخيرة مما يسمح بنعتها تجاوزا بمنطقة جبلية. وتوطن الجهة ساكنة مختلطة مكونة من العنصرين الأساسيين لسكان المغرب وهما العرب والبربر/الأمازيغ، وقد توافد جزء منها على المنطقة من مناطق مختلفة من المغرب خاصة من واحات الجنوب الشرقي (درعة وتافالالت) ومن سوس ومن دكالة حاملا معه تراثا وثقافة مختلفين طعما الثقافة المحلية وأغناها بشكل كبير.

إن التنوع الطبيعي والبشري للجهة جعل، تاريخها حافلا بالأحداث والوقائع التي أثرت ليس فقط في التاريخ المحلي بل أيضا في التاريخ الوطني ووجهته ورسمت كثيرا من ملامحه خاصة في العصور الحديثة والمعاصرة، وتراثها الديني والعمراني والفلكلوري (مواسم-لباس-حلي-زينة-طبخ-عادات-تقاليد-غناء-رقص-شعر-أمثال-صناعة تقليدية: نسيج-أفرشة-صياغة-نجارة-حدادة-دباغة-عصر وطحن...) كثيرا وغنيا لحد التعقيد.

للأسف فغنى التاريخ والتراث المحليين يقابله تجاهل وإهمال من قبل الكتاب والمدونين للتواريخ والأخبار من الأقدمين والمحدثين على حد سواء، بحيث لا تتوفر للباحث مكتوبة إلا أشياء قليلة وبسيطة، بينما القسط الأكبر ما يزال مشتتا وموزعا بين جبال وتلال المنطقة وسهولها وهضابها في صدور الحذاق من الساكنة أو بين أيدي الصناع أو في معاش الساكن العادي؛ الذي لا يكاد يشعر بما يحمله ويمارسه بتلقائية وعفوية، وإذا سئل عما يقوم به يفغر فاه دهشة وجهلا واستصغارا لقيمة الأشياء التي يحملها، وإذا شجعتة وفتحت شهيتته ونبهته بسؤال بسيط أو إشارة مقتضبة تجمع بين تشجيع الصديق ومكر الباحث، يغررك بتفاصيل كثيرة ودقيقة لم تكن تنتظرها أو تتوقعها منه في بداية حديثك معه، أو في مسجد أو ضريح أو عين ماء أو مغارة أو أطلال مندثرة أو أحجار مجمعة (كركور) أو مستحثة أو سور مدينة أو غرفة معيشة أو استقبال في بيت بسيط أو فخم أو مطبخ قروي أو مخزن جماعي أو معصرة زيت أو مشغل فخار أو ورشة نجار أو حائك أو حانوت خياط أو عطار أو حقل أو مرعى وكل مكان توجد أو وجدت به نسمة من هذه الساكنة. كل هذا التراث والتاريخ يحتاج إلى من يهتم به ويجمعه.

بدأ اهتمام الباحثين بهذه الجهة محتشما ومحدودا وأنتج بعض الأعمال المهمة، لكن إنشاء جامعة السلطان مولاي سليمان وخاصة كلية الآداب ببني ملال وانفتاح باحثيها على الجهة وهمومها واستعدادهم للتضحية من أجل حفظ تاريخها وتراثها؛ وعيا منهم بدور الجامعة المحلي وضرورة اهتمامها بجهتها والعمل على دراسة كل ما يتعلق بها تخليدا لتاريخها وتراثها

وإسهاما في تنميتها الشاملة، أعطى الانطلاقة لورشات مهمة تؤطرها فرق بحث ومختبرات تخصص اهتمامها لتاريخ وتراث المنطقة بكل مكوناته جمعا وتحقيقا ودراسة وتأليف، وما فريق التدين إلا واحدا من هذه البنيات العلمية.

لكن اتساع الاهتمام بتراث وتاريخ الجهة وتنوع مجالاته بدأ يفرض بحدة ضرورة وضع منهج علمي مؤطر وموجه لأعمال الباحثين حتى تخرج من طابعها الهاوي والفردى وتأخذ وضعها ضمن البحث الرصين القادر على إنتاج معرفة ومنهج خاص ونظريات أو؛ على الأقل، وجهات نظر قوية تكون أساسا للدراسات المستقبلية. ويصبح الأمر أكثر استعجالا وإلحاحا إذا استحضرنا تنوع التخصصات التي تشترك وتتلاقى في دراسة هذا التراث، فهناك التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع والإثنولوجيا وعلم الفولكلور وعلم المتاحف وعلم الأديان وعلم الهندسة...، مما يفرض معرفة بمبادئ بعضها البعض لتكوين منهج؛ ربما هجين، خاص بدراسة ما يهم الجهة.

ويعتبر التصوف أحد المواضيع المؤثرة في تاريخ المنطقة منذ وقت مبكر من الوجود الإسلامي بالمغرب. وقد كان اتصال تادلة وبلاد فازاز بالإسلام مبكرا حيث يعود إلى الحملتين الأوليين لعقبة بن نافع الفهري وموسى بن نصير في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، ومنذ ذلك التاريخ والإسلام؛ وبالرغم من بطئه، يتوسع وينتشر ويكسب أتباعا كثيرا بفضل مساهمة الحكام والفقهاء والمتصوفة الذين ظهروا مبكرا في المنطقة -كما يبين التادلي في تشوفه- كزهاد التحقوا بالرعاة والقرويين عامة في مواطنهم وعرضوا الإسلام عليهم في صورة شعبية بسيطة قربته من قلوبهم وهزمت التردد ووعورة تضاريس المنطقة وعزلتها وهامشيتها وقلة ساكنتها المستقرة.

ووفر تأخر تغلغل الإسلام في المنطقة وعزلتها وبعدها عن المراكز الحضرية الكبيرة وبساطة الحياة بها شروطا مثالية لاستقرار الزهاد وبعدهم المتصوفة فيها، لكنهم لم ينغلقوا على أنفسهم بل ظلوا مرتبطين بأشهر رجالات التصوف في المناطق الأخرى والمراكز الحضرية الكبرى، لذلك وجدناهم يرتبطون بعلاقات وطيدة مع أشهر رجال التصوف في المغرب منذ العصر الوسيط مثل: أبو يعزى يلنور في تاغيا وشعيب السارية في أزموور وبنو أمغار في طيط وأبو محمد صالح في آسفي... ولما بلغ التصوف المغربي الأوج تحت غطاء طريقي وجدنا المنطقة تفتح على أشهر الطرق والزوايا في فاس ومراكش وسلا ودرعة وتافيلالت وسوس وغيرها وظهر الشيوخ العلماء الذين نجحوا في تأسيس زوايا وطرق وجمعوا الأتباع من المنطقة وخارجها وامتد إشعاعهم بعيدا وصارت زواياهم جزءا من القوى المؤثرة في المغرب وتطوره الديني والثقافي والسياسي. وتمثل الزاوية الدلائية والزاوية الشرقاوية ببجد أحسن نموذجين عن ذلك.

وبلغت الحركة الصوفية/الطرقية أوج قوتها في العصر الحديث (العصر الوطاسي والعصر السعدي والعصر العلوي الأول - القرون 16-18م/10-12هـ) الذي يمكن أن نعتبره عصر الازهار والأوج والقوة لهذه الحركة بالمنطقة. وظهر رجال أقوياء مثل: سيدي علي ابن إبراهيم صاحب زاوية إكرض وسيدي محمد أو محمد بواويزغت وسيدي علي بن عبد الرحمن الدرعي بتمجت وسيدي موسى البوكمازي بتانغملت وسيدي سعيد أو يوسف أحنصال بواوزغت (أيت مظريف) وأبي القاسم الصومعي وسيدي محمد الشرقي... وأغلب هؤلاء شيوخ كبار أسسوا طرقا أو طوروا طرقا قديمة وارتبطوا بالزوايا الكبرى في المغرب مثل: الجزولية والغازية والناصرية واستقطبوا اتبعا كثيرا حتى من المراكز الحضرية الكبرى كفاس ومراكش والرباط... وصارت مقرات زواياهم قبلة للمتصوفة والزهاد وملجأ لطالبي الدنيا والآخرة في الآن نفسه، وشاركت في تطور المغرب ثقافيا ودينيا وسياسيا.

كانت أهمية تاريخ وتراث جهة بني ملال-خنيفرة خاصة الديني وهذه الإشكالات المنهجية التي يطرحها وراء اقتناع فريق "التدين في جهة تادلة/ أزيلال: الأولياء والأضرحة والأماكن المقدسة"؛ باختيار التدين كموضوع لعمله طيلة الفترة التي اعتمد فيها (2014-2017). وتتويجا لعمل أعضاء الفريق وبحثا عن إشراك باقي الباحثين المهتمين بهذا الموضوع نظم الفريق نشاطين علميين يصبان في هذه الهوموم، ويتعلق الأمر ب:

- مائدة مستديرة في موضوع "مسألة المنهج في دراسة تاريخ وتراث جهة بني ملال/خنيفرة" يوم 15 مارس من عام 2016 برحاب كلية الآداب، وحضرها باحثون من الجهة (إثنا عشر متدخلا) ممن يعنون بهذا الموضوع. وقد خرج اللقاء بمجموعة من النتائج استفاد منها المشاركون وخاصة الفريق.
- ندوة "التصوف في جهة بني ملال/ خنيفرة: عصر الشيوخ الكبار (ق16-18م)" يومي 11 و 12 ابريل من عام 2017 برحاب الكلية، وشارك فيها باحثون من كل أرجاء الوطن (تطوان - الرباط - الجديدة - برشيد - مراكش - أكادير - تنغير - دمنات- فاس - بني ملال) قدموا أعمالا مهمة حول تصوف المنطقة رجلا وزوايا وأماكن مقدسة، وسلطوا الضوء على جوانب عديدة أخرى في الموضوع من خلال مناقشاتهم.

ونظرا لأهمية مشاركات المتدخلين في النشاطين حرص الفريق؛ تعميما للفائدة، على نشرها في هذا المؤلف.

ويتكون الكتاب من أربعة محاور، يهتم الأول بالقضايا المنهجية، ويناقش الثاني بعض خصائص التصوف في جهة بني ملال/خنيفرة، ويركز الثالث على أهم الزوايا في الجهة،

ويختم الأخير بدراسات عن قضايا ترتبط بالتصوف والمقدس مثل: الأماكن المقدسة والأضرحة والدور التعليمي لبعض المتصوفة وجذور ظاهرة التصوف في العصر القديم. في الأخير نتوجه بخالص الشكر والتقدير للسيد رئيس جامعة السلطان مولاي سليمان والسيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية والسيد رئيس المجلس العلمي المحلي ببني ملال والسادة أعضاء الفريق والسيد الكاتب العام للكلية وطلبتنا في الإجازة الذين أطرنا مشاريع نهاية دراستهم الجامعية لمساهماتهم في العمل الميداني وجمع المادة بفعالية، ونشكر كل من ساعدنا في عملنا هذا في أي مرحلة من مراحلها.